الغزالي (١)

ترجمتهُ وتعاليمهُ

ايها السادة

على نحو عشرة فراسخ من مدينة نيسابور قاعدة خراسان توجد ولاية طوس وبها مدينتان الطابران ونوقان ومن الطابران بزغت شمس الامام ابي حامد محمد الغزالي سنة ٤٥٠ من الهجرة النبوية

وكان ابوهُ فقيرًا صالحًا لا يأكل الاَّ من كسب يدهِ في عمل غزل الصوف بطوس ولما ادركتهُ منيتهُ كان ابو حامد هو واخوهُ ابو الفتوح احمد صغير بن فاوصى بهما الى صديق لهُ متصوف من اهل الخير وقال لهُ "ان لي تأسفًا عظيمًا على تعلم الخط واشتغلي استدراك ما فاتني في ولدي هذين فعلّمهما ولاعليك ان تنفد في ذلك جميع ما اخلفهُ لهما" . فلما مات اقبل الصوفي على تعليمهما الى ان فني ذلك النزر اليسير الذي خلفهُ لهما ابوهما وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما فقال لهما اعلما اني قد انفقت عليكما ما كان لكما وانا رجل من الفقر والتجرد بحيث لا مال لي فاواسيكما بهِ واصلح ما ارى لكما ان تلجأ الى مدرسة فانكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما . ففعلا ذلك وكان هذا هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما وكان الغزالي يحكي هذا ويقول طلبنا العلم لغير الله فأبى ان يكون الاَّ لله

تعلم الغزالي

قرأ في صباهُ الفقه على احمد بن محمد الراذكاني براذكان وهي احدى قرى طوس . ثم رحل الى جرجان قاصدًا أبا نصر محمد بن ابي بكر الاسماعيلي رئيس علماء جرجان فاخذ عنهُ جمًّا وكتب عنهُ تعليقة ثم عاد الى طوس . وقد حصل لهُ في عودتهِ حادثة لفتت نظرهُ الى امر عظيم يرقيهِ في مستقبل ذلك ان الطريق قطعت عليهِ واخذ العيَّارون جميع ما معهُ ومن ضمنهِ مخلاة فيها ما كتبهُ عن شيخهِ بجرجان . فتبع العيَّارين ولما رآهُ مقدمهم قال لهُ ارجع ويحك والاَّ هلكت فقال لهُ الغزالي اسألك بالذي ترجو السلامة منهُ ان تردَّ عليَّ تعليقتي فما في شيء تنتفعون بهِ . فسألهُ عن تعليقتهِ فقال كتب هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة

(١) خطبة القاها حضرة الاستاذ محمد الخضري المدرس بمدرسة القضاء الشرعي في جلسة نادي دار العلوم المنعقدة في ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٩

عليها. فضحك وقال كيف تدعي انك عرفت علمها وقد اخذناها منك فخرجت من معرفتها وبقيت بلا علم. ثم امر بعض اصحابه فسلمها اياها. ولما رجع الى طوس اقبل على الاشتغال بما معهُ حتى صار علمهُ في قلبهِ لا في كتبهِ

ثم تاقت نفسهُ الى ارقى مما حصل فسار الى نيسابور وبها الامام الجليل عبد الملك بن عبدالله بن يوسف الجوَيني النيسابوري الشهير بامام الحرمين وهو شيخ الوقت وامام الشافعية. وكان امام الحرمين ممن لم يعقهم عائق التقليد فلم يكن يتقيد برأي امامهِ فيما لم يرَ لهُ فيهِ حقًّا بل كثيرًا ما خالف الشافعي وهو الذي ينسب اليهِ في الفقه وخالف الاشعري وهو الذي ينتسب اليهِ في اصول الدين وقد كان ذلك مما يجرُّ عليهِ احيانًا ما لا ينجو منهُ عالم باحث في مثل الوسط الذي كان فيهِ امام الحرمين. تلقى الغزالي عن هذا الامام العظيم العلوم الشرعية فكان لهُ من حرية استاذهِ واستعدادهِ وهو اعظم معين على الرقي الذي صادفهُ. قرأ عليهِ الفقه والخلاف والجدل والاصول والمنطق فبرع فيها حتى كان امام الحرمين يصفهُ بانهُ بحر مغدق. ولم يزل معهُ حتى توفي الامام سنة ٤٧٨ من الهجرة فغادر نيسابور قاصدًا الوزير ابا علي الحسن بن علي الطوسي الملقب بنظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي (ولد نظام الملك سنة ٤٠٨ وقتل سنة ٤٨٥) وكان هذا الوزير غرة في جبين الدولة السلجوقية بل لا نبالغ اذا قلنا انهُ لم يأتِ في عصر بني العباس وزير مثلهُ فهو مؤسس المدارس النظامية (نسبة اليهِ) ببغداد ونيسابور وبلخ وغيرها من امهات المدن في العراق وفارس ونظامية بغداد ابتدئ بعمارتها سنة ٤٥٧ وانتهي منها سنة ٤٥٩ وكان يتولى التدريس بها اكبر علماء الشافعية بالعراق. وهو اول من جعل لطلاب العلم معلومًا يتناولونهُ

لما قابل الغزالي نظام الملك بالمعسكر قدسهُ لمن بحضرتهِ من العلماء فناظرهم وناظروهُ فظهر عليهم بظهور فضلهِ فاعترفوا لهُ بالنبوغ وحينذاك ولاهُ الوزير التدريس بنظامية بغداد وامرهُ بالتوجه اليها فقدم بغداد سنة ٤٨٤ وادى بها الدرس وكان يحضر درسهُ من كبار العلماء المدرسين ببغداد ثلاث مئة. ولم يكن يحضر بالمدارس النظامية الا من قاربوا الانتهاء في علومهم فهي تشبه من بعض الوجوه المدارس العالية في ايامنا

اقام الغزالي يدرّس بالمدرسة النظامية الى سنة ٤٨٨ وفيها خرج الى البلد الحرام قاصدًا الحج واستناب في التدريس اخاهُ ابا الفتوح احمد. ثم ذهب الى دمشق سنة ٤٨٩ ومنها زار بيت المقدس. ثم عاد الى دمشق واقام بها مدة معتكفًا متجردًا عن الدنيا ومشاغلها. ثم قدم الاسكندرية فاقام بها مدة وكان عازمًا على الرحلة الى المغرب الاقصى لمقابلة امير دولة

الملثمين يوسف بن تاشفين سلطان المغرب فبلغهُ موتهُ فعدل عن ذلك واستقر بحوب البلدان ويزور المشاهد ويأوي الى القفار ويروض نفسهُ ويجاهدها ثم عاد الى بغداد وعقد مجلس الوعظ ثم انتقل الى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور بعد الجهد شديد ولكنهُ لم يطق المقام فعاد الى طوس واتخذ جانب دارهِ مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ووزع اوقاتهُ على العلم والعمل حتى توفي سنة ٥٠٥ من الهجرة

تقلباتهُ الفكرية

كان الغزالي في بدء حياتهِ العلمية تنتابهُ همة الاشتغال بالفقه واصولهِ وتحقيق مباحثهما والاكثار من التنقيب والتفريع على عادة الفقهاء حتى برّز على الاقران وانتهت اليهِ الرئاسة بالعراق وخراسان والف في الفقه الكتب الكبيرة على الطريقة المألوفة وكانت نشأتهُ في وقت غلا فيهِ مرجل العصبية بين الحنفية والشافعية فكان اكبرهم العلماء من رجال المذهبين ان يتقنوا كيفية الجدل ومنازعة الخصوم ليستظهروا على اقرانهم ومخالفيهم في الآراء حتى لقد نقل عن اعلامهم كثيرٌ واشهرهم اسماً وهو ابو حامد الاسفرايني الحديث الآتي قال ابو حيان التوحيدي سمعت الشيخ ابا حامد يقول لطاهر العباداني — لا تعلق كثيراً لما تسمع مني في مجالس الجدل فان الكلام يجري فيها على خلل الخصم ومغالطتهِ ودفعهِ ومغالبتهِ فلسنا نتكلم لوجه الله خالصاً ولو اردنا ذلك لكان خطونا الى الصمت اسرع من تطاولنا في الكلام وان كنا في كثير من هذا نبوء بغضب من الله تعالى فأنا مع ذلك نطمع في سعة رحمة الله من طبقات الشافعية لابن السبكي

تربى الغزالي على هذا المبدإ مبدإ البحث والنظر والجدل حتى ذاع صيتهُ ونال الجاه الوفير والحظ العريض وصار شيخ مشايخ العراق في عهدهِ

وفي ذلك الزمن كانت آراء الفلاسفة قد تمكنت من فئة عظيمة من المسلمين وبرّز في اخراجها للناس الرئيسان ابو علي بن سينا وابو نصر الفارابي وغيرهما فشاعت تلك التعاليم ولكن الفقهاء وقفوا بينها وبين العامة حتى لا تشوش عليهم عقائدهم واغاروا على تلك التعاليم بالتزييف من غير ان يكلفوا انفسهم العناء في استكشاف ما عليهِ اولئك الفلاسفة . اراد الغزالي ان يكون لهُ سهم في مناضلة الفلاسفة ولكنهُ لم يكن رازحاً تحت عبء التقليد كيف وهو تلميذ امام الحرمين فرأى من الحكمة ان لا يتعرض لتسفيه تلك الآراء حتى يحيط بها علماً فشغل نفسهُ بتعرف الفلسفة وما فيها من المباحث حتى يكون كلامهُ فيها عن خبرة لا عن تقليد . مكث على ذلك ثلاث سنين حتى استكنه ما عند القوم وعند ذلك شرع في كتابهِ

الذي سماه تهافت الفلاسفة وقد نهج فيهِ منهجاً خالف فيهِ سلفهُ في المناظرة فقسم ابحاثهم الى ثلاثة اقسام

(الاول) ما يرجع النزاع فيهِ الى مجرد الالفاظ وهذا لم يتعرض لهم فيهِ فانهُ بعد الاتفاق على المسمى لا معنى للاختلاف في اطلاق اللفظ

(الثاني) ما لا يصدم مذهبهم فيهِ اصلاً من اصول الدين كقولهم ان كسوف القمر عبارة عن اتحاد ضوئهِ بتوسط الارض بينهُ وبين الشمس من حيث انهُ يقتبس نورهُ من الشمس فاذا وقع القمر في ظل الارض انقطع عنهُ نور الشمس وكقولهم ان كسوف الشمس معناهُ وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس وذلك عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة. قال وهذا الفن لسنا نخوض في ابطالهِ ومن ظن ان المناظرة في ابطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعّف امرهُ فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسيّة وحسابيّة لا تبقى معها ريبة فمن يطّلع عليها ويحقق ادلتها حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ومدة بقائهما الى الانجلاء اذا قيل لهُ هذا على خلاف الشرع لم يستريب فيهِ وانما يستريب في الشرع. وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقهِ اكثر من ضررهِ ممن يطعن فيهِ بطريقهِ. وهو كما قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل. ثم قال واعظم ما يطعن بهِ الملحدة ان يصرح ناصر الشرع بان هذا واشباههُ على خلاف الشرع فيسهل عليهم طريق ابطال الشرع ان كان شرطهُ امثال ذلك. وحدا لان البحث في العالم عن كونهِ حادثاً او قديماً ثم اذا ثبت حدوثهُ فسواء كان كرة او بيضاً او مثلثاً او مسدساً وسواء كانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة كما قالوهُ او اقل او اكثر فنسبة النظر فيهِ الى البحث الالهي كنسبة النظر الى طبقات البصل وعدد حب الرمان فالمقصود كونها من فعل الله كيفما كانت

(الثالث) ما يتعلق النزاع فيهِ باصل من اصول الدين وهذا هو الذي نازعهم فيهِ مع ادب لم نرهُ لغيرهِ ممن نازعوا الخصوم في عقائدهم

وهذه المبادىء الثلاث التي سنها الغزالي في المناظرة مع مخالفيهِ لم نرَ كثيراً من علماء الدين من سار عليها وهي البعد عن النزاع في الالفاظ وعن النزاع فيما اثبتتهُ براهين الهندسة والحساب واستعمال الادب في المناظرة. هذا ابن حزم مع علو كعبهِ في العلوم الاسلاميّة الف كتابهُ في الملل والنحل شرح فيهِ مذاهب الخصوم وآراءهم ثم انبرى للرد عليها بقول تلحقهُ شنعتهُ وتدركهُ تبعتهُ. وطالما طرق سامعنا وهو في بدء تعلمنا ان القول بكرويّة الارض كفر والاشتغال بالكيميا والطبيعة كفر وما ماثل ذلك من الاقوال كأنهم لم يستفيدوا شيئاً

من قول هذا الامام الذي اطنهُ منذ ٨٤٠ سنة

ألَّف الغزالي كتاب الفلاسفة فرمتهُ العيون بالاجلال والاعظام وصار امام اهل عصره حجة الاسلام غير مدافع واليهِ ينتهي الدفاع عن حوزته . صادف في ذلك الوقت شيوع آراء الباطنية وظهورهم بمظهر القوة بقلعة المرت وكادت آراؤهم تحوز مكانًا عليًّا في النفس بعض العامة لما يزخرفونهُ من الاقوال في سبيل تأييد دعوتهم فانتدب الغزالي للرد على هذه الدعوة واظهار عوارها فكتب في ذلك جملة كتب على طريقتهِ الادبية الجدلية فكان ذلك مما زاد في أكبارهِ واعظامهِ في نظر حكومة الوقت

وبينما الرجل في منتهى ابهتهِ اذ خطر لهُ خاطر صغر امرهُ في عينهِ . رأى ان ما هو فيهِ لا يصلح قصدهُ ولا يقربهُ من الملإ الاعلى بل بالعكس هو مما يزرع الاخلاق الرديئة من الكبر والتعاظم والحسد والمنافسة الى غير ذلك مما يبعدهُ عن الله سبحانهُ فخطر ببالهِ ان يترك كل ما فيهِ من هذه المظاهر ويتجرد بنفسهِ بينها ويروضها حتى يقلع ما غرس فيها من رديء النبات ويستبدل بهِ ما هو خير منهُ فترك بغداد قاصدًا الاماكن المقدسة واستمر رحَّالة بعيدًا عن نقائص هذا العالم ولما عاد لم يرضَ بمعاودة ما جلب عليهِ تلك الشرور النفسية بل ذهب الى بلدهِ واذ ذاك تغيرت حال الرجل من فقيه جدلي الى مؤمن صوفي يرى الخُلق الحسن فوق كل شيء وان العلوم اذا لم تكن معها الاخلاق فهي احط من درجة الجهالة لانها تزيد الفساد في نفس متعلمها وحينذاك كتب كتابهُ الشهير باحياء علوم الدين ضمنهُ خلاصة ما نال في حياتهِ وما استخلصهُ من رياضتهِ نفسهُ فهو ثمرة سعيٍ فقيه مُرَبٍّ وقد بسط فيهِ رأيهُ عن الطريقة التي كان بها العلم والتعليم لزمنهِ وضربها ضربة شديدة

سنأتي البقية

باب الزراعة

الزراعة المصرية منذ مئة عام

(١١)

زراعة الكتَّان

يزرع الكتَّان في اسيوط والمنيا والفيوم وداخل الدلتا في اجود الاراضي واسهلها ريًّا بمعدل اردب في كل فدان . وفي الواسطة وصعيد يزرعونهُ في اسيوط على اثر انحسار الماء